Meliani Mohamed
MCF.Université d'Oran

النص والسياق والمرجعيات الداخلية الخارجية

النص وحدة كبرى شاملة، تتشكل من أجزاء مختلفة تتصل بمستويين: - الأول أفقي (نحوي) ويتشكل من وحدات صغرى تربط بينها علاقات التماسك النحوية. - والثاني عمودي (دلالي) ويتشكل من تصورات كلية تربط بينها علاقات التماسك الدلالية، [1] و"يصعب أن يعتمد في تحليل النص على نظرية بعينها، وإنما يمكن أن تتبنى نظرية كلية تتفرع إلى نظريات صغرى تحتية تستوعب كل المستويات". [2] ويمكن تمثل هذا الفهم في الشكل التالي:

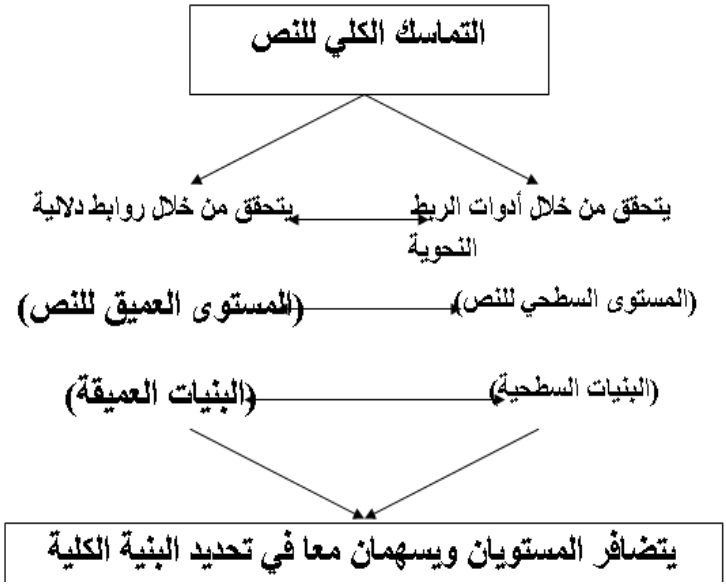

[1] - ينظر علم لغة النص- المفاهيم والاتجاهات: أ.د. سعيد حسن بحيرى، ط.1، سنة 1424ه/2004م، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع-القاهرة- ص110.

[2] - المرجع نفسه، ص 108.

إذا كان علماء النص قد وجهوا اهتمامهم وعنايتهم إلى التماسك النصي بوصفه عنصرا هاما من عناصر التحليل الذي له حضور قوي في أي نص، فأين تكمن هذه الأهمية يا ترى؟

ب- أهمية التماسك:

أولى علماء النّص التماسكَ عناية كبيرة؛ لأنه يربط بين أجزاء الجملة، وأجزاء النص، وهذا الرابط شكلي دلالي- كما سبق ذكره- إلا أن التماسك لا يربط بين أجزاء الجملة باعتبارها بنية لسانية مستقلة، وإنما داخل البنية الكلية للنص؛ لأن عزلها يؤدي إلى تفسير جزئي لما تحمله من دلالات، قد تحقق امتدادا داخل الكل وفق دلالات الجمل السابقة واللاحقة. ويؤكد هذه الفكرة صلاح فضل بقوله:" علماء النص يولون التماسك عناية قصوى، ويذكرون أنه خاصية دلالية للخطاب، تعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقاتها بما يفهم من الجمل الأخرى."[1]

وممّا تقدم نجمل أهمية التماسك في النقاط الآتية:[2]

- *التركيز على كيفيات تركيب النص بوصفه صَرْحا دلاليا.*
- *والبحث عن أدوات التماسك في النص.*
- *والربط بين أجزاء الجمل والفقرات.*

ج- علاقة التماسك بالساق:

ولما كانت فكرة السّياق مهمة، وهي المركز الّذي يدور حوله كشف المعنى، وتتمثل فيه العلاقات والأحداث، والظروف الاجتماعية التي له ا نصيب ساعة الإبداع،[3] ولما كان تحليل النص في سياقه أمرا ضروريا، فإنه في مجال التماسك النصي تقتضيه وتوجبه أكثر من ضرورة؛ لأنّ العلاقات التي تربط الأجزاء من حيث الشّكل والدّلالة لا تحكمها ظواهر اللغة فحسب، وإنّما التصورات والملامح التي تحدد الظرف الذّي سيق في إطاره الكلام، كما أنّ القيمة الفنية تكمن في القيمة السّياقية التّي تبرز من تلاحم عناصر النّص وتماسكها ونظمها.[4]

لم يهتم بنظرية السياق علماء النص وحدهم، بل علماء اللغة بصفة عامة؛ لأنّه الظل الملازم للمعنى لا يفارقه، وخاصة إذا حدث الغموض،

---

[1] - بلاغة الخطاب وعلم النص : د.صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، أغسطس 1992م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص263.

[2] -ينظر علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : د. صبحي إبراهيم الفقى،100/1

[3] - اللغة والمعنى والسياق: جون لاينز، ترجمة: د. عباس صادق الوهاب، مراجعة:د. يوئيل عزيز، ط.1/1987م، دار الشؤون الثقافية العامة، ص337.

[4] - ينظر التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 528.

ويعضد هذا الفهم قول فيرث:" بأن المعنى لا ينكشف إلاّ من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة... فمعظم الوحدات الدّلالية، تقع في مجاورة وحدات أخرى. وأنّ معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلاّ بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها." [1]

فلقد نظر "فيرث" إلى المعنى على أنه نتيجة علاقات متشابكة متداخلة، وهو ليس وليد لحظة معينة بما يصاحبها من صوت وصورة فقط، ولكنه حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع أيضا، "فالجمل تكسب دلالتها في النهاية من خلال ملابسات الأحداث أي من خلال سياق النص". [2]

وإذا كان النحاة قد ركزوا على التماسك على مستوى الجملة فقط؛ لأنهم وجهوا عنايتهم كاملة إلى العملية الإسنادية وما يتعلق بالجملة وما تطلبه من ابتداء وفاعلية، وضرورة وجود الرابط في جملة الصلة والخبر جملة، ولم يتعدوا حدود الجملة إلاّ نادرا، فإن علماء النص المحدثين ركزوا على التماسك النصي على مستوى أجزاء الجملة وعلاقتها بالجمل الأخرى، وعلاقة الجملة بالفقرة، وعلاقتها بالنص بوصفه بنية كلية.

أدوات التماسك:

إنّ الحديث عن أدوات التماسك شائق وطويل، رغم التباينات الموجودة بين أقوال العلماء في حصرها وتحديدها في الغالب، إلاّ أن هذا التباين يبقى سطحيا، وتبقى الأدوات المشتركة بينهم تشكل جهازا نظريا موحدا أساسا، يؤطره هدف واحد مشترك يتمثل في تماسك وانسجام أجزاء النص.

صدر كتاب موسوم ب" التماسك في الإنجليزية" " لهاليدي ورقية حسن، وقد تناول هذا المؤلف خمس أدوات وهي كالآتي:

1- المرجعية): *وهي بدورها مقسمة كالآتي:*

أ- مرجعية شخصية (الضمائر)

ب- مرجعية إشارية (أسماء الإشارة)

ج- مرجعية مقارنة (أسماء التفضيل)

---

[1] - علم الدّلالة: د.أحمد عمر مختار، ط.2، سنة 1988م، عالم الكتب- مصر- ص 68-69.

[2] - الاتجاه الوظيفي، يحي أحمد، عالم الفكر مجلة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت ص 81-82)

2- العطف (Conjonction)[1]:

بحكم العلاقة التي تربط بين المعطوف والمعطوف عليه، اكتسبت أدوات العطف أهميتها في تحقيق التماسك النصي من خلال السياق الذي توجد فيه.

3- التماسك المعجمي (Cohésion Lexicale)

ويعد من الأدوات الشكلية التي تقوم بمهمة التماسك النصي، وينقسم في نظر هاليداي ورقية حسن إلى قسمين :

1- التكرار (Réitération): *ويعد مظهرا من مظاهر التماسك المعجمي، ويتطلب إعادة عنصر معجمي من خلال الاشتقاق أو الترادف أو اسما عاما أو اسما مطلقا، [2] وقال محمد مفتاح:" فقد صنفت فيه أنواع العلائق التي تكون بين مفردات المعجم؛ وهي علاقات التكرار والاشتقاق والترادف..." [3] وللتوضيح قدم صاحبا المؤلف المثال الآتي:*

I turned to the ascent of the peak……..is perfectly easy.

The ascen

The climb

The task

The thing

It

شرعت في الصعود إلى القمة.....سهل للغاية.

الصعود

التسلق

العمل

الشيء

هو

---

[1] - تؤدي أدوات العطف وظيفة التماسك النصي- يمكن مراجعة ذلك بالتفصيل في" بناء الجملة العربية: محمد حماسة عبد اللطيف، ط.1، سنة1416ه/1996م، دار الشروق-مصر- ص 158 وما بعدها.

[2] - ينظر لسانيات النص-مدخل إلى انسجام الخطاب-: محمد الخطابي، ط.1/1991م، المركز الثقافي العربي، ص24.

[3] - التشابه والاختلاف - نحو منهاجية شمولية-:د. محمد مفتاح،ط.1/1996، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- ص 130.

فنلاحظ في هذه الجملة تكرار كلمة "الصعود"، و إمكانية توظيف مرادفها وهو "التسلق"، وجاءت كلمتا "العمل والشيء" للدلالة على اسم مطلق أو اسم عام.

2- التضام (Collocation): ويقصد به تضام زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة لارتباطهما بحكم هذه العلاقة، ومثال ذلك:

Why does this boy wriggle all the time? Girls don t wriggle.

ما لهذا الولد يتلوى في كل وقت وحين ؟ البنات لا تتلوى.

3- الحذف (Ellipse):

الحذف ظاهرة لغوية عامة تشترك فيها اللغات الإنسانية، [1] تميزت بها اللغة العربية؛ لأن خصائصها الأصيلة تميل إلى الإيجاز، وليس الغرض من الحذف تحقيق الإيجاز فحسب، بل هو وسيلة تعبيرية قصدية، يُعْدَل في تركيبها عن الأصل إلى بنية تركيبية أقل لفظا وأغزر معنى.

غير أن النّص قد يكون خاليا من الوسائل التي تحقق التماسك الشكلي، فيجد المتلقي نفسه أمام بياض مفتوح لا سواد فيه يوجهه الوجهة الصائبة، إلى أن يتنبه إلى ضرورة إعادة بناء انسجام النص؛ الذّي يعدّ أعم من التماسك، وذلك بأن يوجه اهتمامه إلى السياق الذي يمكنه من "صنع علاقات ضمنية غير محسوسة بين أجزاء النص، ومن ثم يتماسك النص أمامه بصورة ما، كما لو كانت أدواته التماسكية الشكلية موجودة ". [2]

ويتضح من خلال هذا القول اعتماد النص والسياق أحدهما على الآخـر، و أن للسياق علاقة مباشرة بتفسير الوحدات الكلامية على مستويات مختلفة ومتعددة، "فالكلام لا يتأتى فصله بأية حال من الأحوال عن السياق الذي يعرض فيه" [3]، وتكمن أهمية العلاقة بين النص والسياق في إمكانية تفسير كل من النص والسياق بالرجوع إلى أحدهما.

---

[1] - ينظر ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي : طاهر سليمان حمودة، ص04.

[2] - علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: د. صبحى إبراهيم الفقى، 118/1.

[3] - علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، ص 265.

4- الإبدال(Substitution):

وهو ما يعرف في اللغة العربية بالبدل، وهو من التوابع [1] ويقوم بوظيفة التماسك النصي، ومثال ذلك في النحو العربي قولنا: (قال الشاعر عنترة)، فالشاعر هو نفسه عنترة، وعنترة هو الشاعر، فللتماسك إذن واضح في هذه الجملة، وبالرجوع إلى المثال الذي ساقه هاليداي ورقية حسن وهو:

* محمد اشترى بعض الكتب، وعلي بعض قطع الحلوى.[2]

وفي سبيل تقديم بعض التوضيحات الضرورية بخصوص مفهوم الإبدال، من الملائم تفكيك الجملة بغية توضيح التماسك فيها، فكانت إعادة كتابتها على الشكل الآتي:

* *- محمد اشترى بعض الكتب، وعلي (...) بعض قطع الحلوى[3]

Substitution par zéro استبدال بالصفر

فالكلام المحذوف من وجهة نظرهما يعد صفرا، وتمّ تعويض الفعل المذكور في الجملة الأولى بالصفر على أن يكون التقدير: اشترى أيضا، وهنا تبرز العلاقة التماسكية بين الجملتين من خلال تكرار الفعل المذكور والمعوض بالصفر (**Substitution par zéro**).

ومع تطور العلوم وتقدم مناهج الدرس اللساني في تحليل وتركيب الكلام، عني الباحثون بدراسة أساليب اللغة في ربط أجزاء الجملة، وربط الجمل ببعضها، والصلة بينها وبين ما يقابلها من الدلالات والمفاهيم، وارتباط هذه المفاهيم في أذهان أهل اللغة والنظر، وهو ما يطلق عليه اليوم نحو النص أو لسانيات النّص، وتفيد هذه المباحث من علوم اللغة بشكل عام والأدب.

إنّ تحليل النّص نحويا لا يتم إلاّ من مراعاة التفاعل والتماسك بين جسد النص وأجزائه من جهة ومدلولاته من جهة أخرى، وكذلك مراعاة التفاعل بين المبدع و تجاوبات المتلقي وردود فعله باعتباره عنصرا

---

[1] - التوابع المعروفة في النحو العربي (البدل بأنواعه- الصفة- التوكيد اللفظي والمعنوي- المعطوف.

[2] - علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، 199/2، و Halliday et Ruqaiya Hasan; Cohesion in English, p.143

[3] - المرجع نفسه، ص 199/2.

فعالا وحيا "يقوم بينه وبين النص تواصل وتفاعل فني، يترتب عنه تأثر نفسي ودهشة انفعالية" ،[1] كما لا يجب إهمال السياق الذي يشغل جزءا لا يستهان به من اهتمامات نحو النص، الذي ولد في عباءة لسانيات النص.

والنحو بشكل عام هو العلم الذّي يفصح ويكشف عن خبايا المباني اللغوية، وكيفيات ارتباطها ووسائل تماسك الدلالات وانسجامها، وانطلاقا من هذا فإنّ مهمة النحو هي أن يجلّي عبقرية النظام اللغوي في النّص وقدرته على التّعبير الدّقيق من خلال وسائل التّماسك النّصي التي تتّصل بالشّكل والدّلالة، تلك الوسائل التي تساعد النّص على تلاحم أجزائه وترابطها؛ ليعطي معناه للمتلقي كما أراده المبدع.

وتعد وسائل التماسك النصي أهم الركائز الرئيسة التي عول عليها علماء النص الغربيون في تحليل النص الفني، ولأهميتها نكاد نجدها شائعة في مؤلفاتهم، الأمر الذي جعل هاليداي ورقية حسن يخصصان لها مؤلفا خاصا -الذي سبق ذكره-

وأقر دي سوسير بأن الوحدات اللغوية تتحدد بالنظر إلى علاقاتها بغيرها من الوحدات الأخرى؛ لأن الوحدة لا تتحدد بناء على جوهرها وإنما على الوظيفة التي تؤديها داخل النظام[2]، ونظر مارتيني إلى الجملة بكونها كل عبارة ترتبط جميع وحداتها بمسند وحيد أو بمسندات مترابطة[3].

وبعد التطورات التي حصلت على مستويات تحليل النّص، ظهر اتجاه آخر في دراسة النّص اللّغوي، لأن النّحو يجتذبه النّص أكثر مما تجتذبه الكلمة، أو الجملة، وأدرك علماء اللسان" أن اجتزاء الجمل يحيل اللغة الحية فتاتا وتفاريق من الجمل المصنوعة المجففة أو المجمدة"[4].

وبهذا الفهم يتجاوز النّص كل حدود المعيارية لنحو الجملة، كما أنه يتجاوز كل عادات التلقي التقليدية وطرق التّحليل النّحوي المعروفة التي خدمت اللّغة زمنا طويلا وما تزال، أضف إلى ذلك أن "النص لا يخضع لقواعد معيارية مثل الجملة، وهو من هذه الزاوية يفلت من الضبط، لا

---

[1] - النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري:حميد سمير، د.ط، سنة 2005م، منشورات اتحاد الكتاب العرب،ص 17.

[2] - ينظر علم لغة النص-المفاهيم والاتجاهات أ.د سعيد حسن بحيري، ص 22.

[3] - ينظر من لسانيات الجملة إلى علم النص : د.بشير إبرير، مجلة الموقف الأدبي مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، العدد 401/ 2004، ص 16.

[4] - نحوُ النص -اتجاه جديد في الدرس النحوي -: د.أحمد عفيفي، ط.1، سنة 2001م، مكتبة زهراء الشرق—القاهرة-مصر، ص 40.

لأنه يَعْسُرُ ضبطه، وإنما لاختلاف المعايير الضابطة له في التصوّر القديم عن ضوابط الجملة".[1]

واكتسى تماسك النص وانسجامه مكانة هامة في الدّراسات التي تندرج في مجالات تحليل النص، ولسانيات النص، ونحو النص، وعلم النص، بدليل أننا لا نكاد نجد مؤلفا في هذه المجالات يخلو من هذين المفهومين أو من أحدهما، أو من المفاهيم التي ترتبط بهما كالتّعالق والترابط.

والنص بوصفه تتابعا من الجمل، وكونه يؤدي وظيفة تواصلية، فإنّه يشكل أرضية خصبة لاتساع مفهوم النحو، وذلك بإضافة مفاهيم جديدة لا تتصل بمجال اهتمام الجملة خارج سياقها التواصلي، وتتصل بمفهوم النص المرتبط بسياقه التواصلي، ومن هذه الزاوية يصبح النحو مكونا من مكونات نظرية شاملة تفسر سلوك الإنسان من خلال نص مرتبط بسياق تواصلي، وليس من خلال جملة[2].

وتقوم معظم العلاقات النّصية على العلاقة بين عنصري الإسناد والمتممات الأخرى داخل الجملة الواحدة، وعلى علاقة الوحدات داخل عدة جمل التي يتشكل منها النّص، "لأنّ التحليل يبدأ في إطار هذا المنهج من الأبنية الصغرى، أو التراكيب المشكلة في جمل أو متواليات جملية تشكل نصا معينا، وبينها علاقات ربط نحوية"،[3] *و هذا لا يتم إلاّ بتوافر وسائل التماسك والانسجام.*

الحذف وأهميته في تلقي النص:

إذا كان علم لغة النّص (**Linguistique du texte***) فرعا من فروع علم اللّغة، فإن نحو النص قد تفرع من علم اللغة النصي الذي يهتم بدراسة النص بوصفه أفعال اللّسان، وذلك لدراسة زوايا متعددة فيه، ولعل من أهمها التماسك النّصي ووسائله والمرجعية (الإحالة)* (**Référence**) *والسياق ودور المتلقي.*

وتعد ظاهرة الحذف في منظور هذا الاتجاه الجديد وسيلة هامة من وسائل التماسك بشقيه: الشكلي والدّلالي، وهذا ما نرغب فحصه وتتبعه فيما تبقى من هذا الفصل.

---

[1] - نسيج النص-بحث في ما يكون به الملفوظ نصا- :الأزهر الزناد، ط.1، سنة 1993م، المركز الثقافي العربي-بيروت- لبنان ص 20.

[2] - ينظر نحوُ النص –اتجاه جديد في الدرس النحوي-: أحمد عفيفي، ص 40.

[3] - علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات: أ.د. سعيد حسن بحيرى، ص116.

وقد دفعتنا هذه الرؤية إلى ضرورة توضيح مفهوم الإحالة وأهميتها في تماسك النص وعلاقتها بالحذف ؛ وذلك لأنه وسيلة أساسية في تناسق أجزاء النص، التّي تعتبر في نظر هاليداي ورقية حسن متتالية من الجمل تربطها علاقات، أو تربط بعض عناصر هذه الجمل، أي هذه العلاقة تكون بين عنصر وآخر وارد في جملة سابقة أو أخرى لاحقة، أو بين عنصر وبين متتالية بكاملها سابقة أو لاحقة، فإذا تعلق عنصر بما سبقه فهي علاقة قبلية، أما إذا تعلق بعنصر يلحقه فهي بعدية، [1] *ويمكن توضيح ذلك من قوله تعالى: (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً)*[2]*، والتقدير:أنزل خيرا، فحذف الفعل مع فاعله في جواب الاستفهام، ويمكن تمثل الآية كما يأتي:*

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا **أَنْزَلَ** رَبُّكُمْ قَالُوا(.....) خَيْراً)

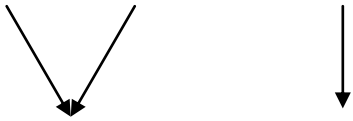

مرجعية قبلية (سابقة) أنزل

الملاحظ أن المحذوف مفعول واقع في جواب الاستفهام (ماذا) بدليل كلام مذكور سابقا، إذن هنا المرجعية قبلية دلّ عليها سياق الكلام، والمحذوف في الآية الكريمة يدل على التماسك الداخلي بين جملتي الاستفهام وجوابها، ومنه -أيضا- قول الشاعر[3]*.*

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

والتقدير: نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راض، ويمكن تمثله بهذا الشكل:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا(.....) = نحن (مبتدأ)+بما(جار ومجرور)+(الخبر المحذوف)

وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ = أنت(مبتدأ)+ بما(جار ومجرور)+راض(الخبر المذكور)

---

[1] - ينظر لسانيات النص -مدخل إلى انسجام الخطاب-: محمد الخطابي، ص13.

[2] - سورة النحل/30.

[3] - قيس بن الخطيم (ت 2ق.هـ /620م) بن عدّي الأوسي، أبو يزيد، شاعر الأوس وأحد رجالها الصناديد في الجاهلية.

وكما هو واضح في الشاهد فإنّ التماسك قد تحقق بين الشطرين، وذلك لدلالة المذكور اللاّحق على السابق المحذوف، أومن " الإبدال من الصفر" [1]حسب مفهوم هاليداي ورقية حسن، ومن خلالها نفهم ما أراد الشاعر رسمه للمتلقي؛ لأن البنية الكلية للبيت الشعري هي متتالية جملية وليست شيئا معطى، وإنما يحتاج إلى وسيلة ملموسة توضحه وتجليه حسب رأي فان دايك.[2]

أما المرجعية البعدية ففي قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَه يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِئ)[3]، والتقدير: إن الله يصلي في قراءة من رفع "ملائكته"، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه وليس عطفا عليه[4]، ويمكن تمثل الآية كما يأتي:

(إِنَّ اللَّهَ(.....)وَمَلاَئِكَتَه**يُصَلُّونَ** عَلَى النَّبِئ)

يصلي مرجعية بعدية (لاحقة)

ي سبيل امتلاك بعض التوضيح للمرجعية القبلية و البعدية .

أ ⟵ ⟶ ب = تمثل مرجعية قبلية (إحالة مقالية قبلية)

[1] - ينظر لسانيات النص-مدخل إلى انسجام الخطاب-: محمد الخطابي، ص21.

[2] - ينظر النص والسياق-استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي :فان دايك، ترجمة،عبد القادر قنيني، د.ط،سنة2000م، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب- ص 143 .

[3] - سورة الأحزاب/56.

[4] - ينظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج133/3.

ويوضح هذا الرسم مرجعية الحذف الذي يعتور البنى اللسانية سواء أكانت سابقة أم لاحقة، أي إذا اشتملت متتالية جملية على حذف، فلابد من مرجعية توجّه المتلقي إلى موضعه، ومن ثم فهمه اعتمادا على السياق.

ونجد بعض الآيات القرآنية الكريمة تتوافر فيها مرجعيتان قبلية وبعدية، ومنها قوله تعالى: (يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)، [1] والتقدير: ويعلم جهركم، فحذف الفعل والفاعل لدلالة السابق واللاحق عليه، فالمرجعية هنا مشتركة بين القبلية والبعدية، ونتمثلها كالآتي:

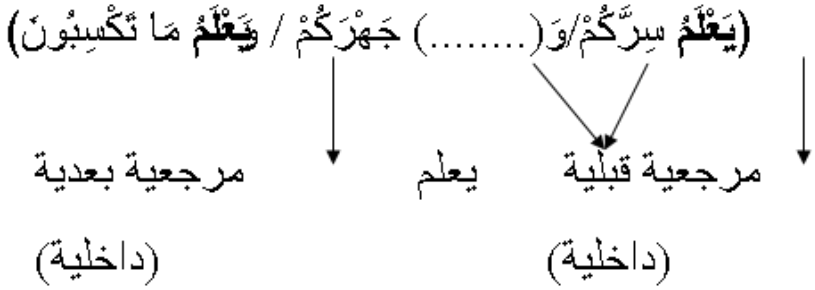

ونلاحظ في هذه الآية حذف الفعل مع فاعله، والدليل مقالي من لفظ المحذوف، وقد تنوعت المرجعية وذلك لتقوية الربط بين السابق واللاّحق وبين ما لم يذكر (الفعل وفاعله) الواقع بينهما، ومن ثم توجه المتلقي إلى فهم النص القرآني فهما صحيحا، ولن يتأتى له ذلك إلا إذا توصل إلى تقدير الكلام المحذوف (المغيب) من خلال الكلام المظهر، باعتبار هذا الأخير مرشدا وموجها.

وإذا كان الحذف يحقق التماسك بين عناصر الآية الواحدة، أو بين عناصر أكثر من آية، اعتمادا على المرجعية الداخلية، فإنّه يحقق التماسك بين أكثر من سورة اعتمادا على المرجعية الخارجية، مثل قوله تعالى:(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَّأْتِيَهُمُ المَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ)، [2] والتقدير: (يَأْتِي أمر رَبُّكَ)، بدليل قوله تعالى في سورة أخرى: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ

[1] - سورة الأنعام/3.
[2] - سورة الأنعام/158.

تَّأْتِيَهُمُ المَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبُّكَ) [1] فدلّ على المحذوف سياق الآية، وأكدته آية من سورة النحل[2].

وبالإضافة إلى مساهمة هذا الحذف في تناسق النص وتماسكه اعتمادا على المرجعية الخارجية اللاّحقة، [3] فإنه أدّى وظيفة أخرى، إذ أفاد حقيقة وهي أن الانتقال والإتيان من مكان إلى آخر صفة من صفات الأجسام التي تشغل حيزا، وأنّ الله عزّ وجل خالق الأماكن والأزمنة، ومنشئ كل ما تصح عليه الحركة والنقلة والتمكن والسكون والانفصال والاتصال والممارسة والمحاذاة [4]، فلا يجوز لله سبحانه وتعالى الإتيان كما بينه الجرجاني في أسراره، و كذلك أمره لا يمكنه المجيء إلا على وجه مجازي؛ لأن الأمر يصدر ويُنَفَّد ويطبَّق ولا يأتي.

لقد تركت العناصر المحذوفة من الآية السابقة فجوة، ممّا يثير المتلقي (متلق خبير) [5] ويدفعه إلى التّمعن والتدبر بغية سد الفجوة وملئها، وتحديد العناصر غير المحددة، وهذا العمل هو الّذي قام به المفسرون، فتوصلوا إلى أن سر الحذف -فضلا على التماسك- يكمن في التأكيد على صدور الأمر، كونه قدرا مقضيا، أما الإتيان فأفاد حتمية وقوعه وتجسيد نفاده فورا حتى شخّص وكأنه آتٍ.

ومنه قوله تعالى: (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمواتُ والأَرْضُ)، [6] أي: كعرض؛ بدليل التصريح به في قوله تعالى: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)، [7] إنّ العلاقة بين الحذف والمرجعية واضحة، الأمر الذي يؤكد أهمية الحذف في تحقيق التناسق النّصي، أضف إلى ذلك أن" تفسير القرآن بالقرآن يعد من أصول التفسير، بل يعد أول هذه الأصول" [8] والحذف عند هاليداي ورقية حسن يرتبط بمرجعية داخلية أو خارجية، سابقة أو لاحقة توضحه في قولهما: " إن الحذف بطبيعته علاقة مرجعية لما سبق (**Anaphorique**)... وأحيانا يكون

---

[1] - سورة النحل/33.

[2] - ينظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج3/114.

[3] - تكون المرجعية الخارجية لاحقة أو سابقة في آي القرآن الكريم وفق ترتيبه المصحفي.

[4] - ينظر أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ص339-340.

[5] - المقصود بالمتلقي الخبير المفسر الفاهم والعارف، ويمكن مراجعة الشروط الواجب توافرها في المفسر في المبحث الثاني من الفصل الثاني من هذا البحث.

[6] - سورة آل عمران/133.

[7] - سورة الحديد/21.

[8] - علم اللغة النصي- دراسة تطبيقية على السور المكية-: د. صبحى إبراهيم الفقى، ج2/179.

*الحذف مرجعيته خارجية (**Exophorique**) والأخيرة تعتمد على سياق الحال الذي يمدنا بالمعلومات التي تسهم في تفسير المثال. لكن الحذف المرجعي للخارج-خارج النص- ليس له مكان في التماسك"* [1]*، ويمكن توضيح فحوى هذا الكلام بالرسم التالي:*

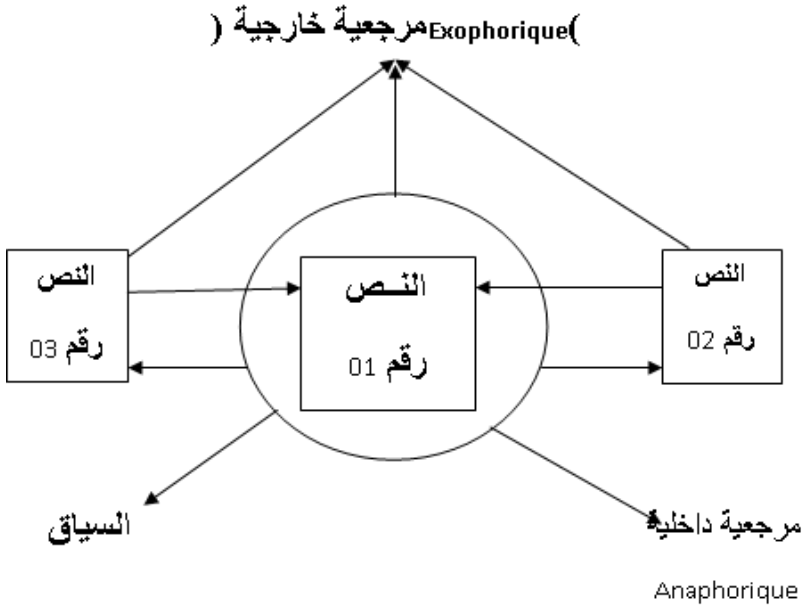

وينهض تماسك النّص على عناصر هامة في نظر الباحثْيْن، وتتمثل حسب الرسم المبين في المرجعية الداخلية ، وتكون إما سابقة أو لاحقة، والمرجعية الخارجية، وينضاف إليهما السياق.

وظيفة الحذف النّصية:

يأتي القرآن الكريم في الذروة من البيان العربي، ف هو كتاب العربية الأكبر، الّذي يشكل بآياته وسوره بنية نصية كلية، وأصفى قول نستشهد به في هذا المقام للإمام علي كرم الله وجهه:" كتابُ الله تُبْصِرُون به، وتَنْطِقُون به، وتَسْمَعُون به، ويَنْطِقُ بَعضُه ببَعض، ويَشهدُ بَعضُه على بَعضٍ، لا يختلفُ في الله، ولا يُخَالِفُ بصاحبه عن الله " [2].

---

[1] المرجع نفسه 201/2، و Cohesion in English,halliday and hassan,p144.-

[2] - نهج البلاغة-من كلام الإمام علي كرم الله وجهه، شرح الشيخ محمد عبده، د.ط، سنة 19861م، دار أسامة، بيروت-لبنان-ج17/2.

*وقد كان إعجازه البياني موردا متأصلا من موارد إعجازه الكلّي، فلا غرابة أن يكون القرآن الكريم مصدرا لكل ما توصل إليه علماء لغة النص، أو كما يطيب للبعض أن يطلق عليه نحو النص، وأصلا لتفجير طاقات كثيرة من هذا العلم، المنعوت بالمنعطف الجديد، حتى يفيد هاليداي وحسن منه، ويغيرا ما أقرّاه بخصوص عدم تحقيق التماسك بالحذف والمرجعية الخارجة (**Exophoric**)[1]؛ لأنّ ما أوردناه من آيات قرآنية قد أثبت عكس ذلك تماما، وحقق الحذف التماسك والاتساق بين أكثر من سورة، ويحضرنا في هذا الشأن قول الإمام علي –كرم الله وجهه-: "إنّ القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه"[2]، والحقيقة إن الحديث عن القرآن ذو شجون وفنون،لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائبه، ولا تبلغ مراميه.*

وفي ضوء هذا الطرح أين نضع قول هاليداي ورقية حسن:" لكن الحذف المرجعي للخارج-خارج النص- ليس له مكان في التماسك"؟[3] *وتقتضي الإجابة عن هذا السؤال من أبناء اللغة العربية الرجوع إلى الإسهامات النصية العربية، وإعادة قراءتها للإفادة منها؛ لأن ما خلفه المفسرون من أعمال في دراسة وتفسير آي القرآن الكريم، تكشف عن وجود مثل هذه المفاهيم في أذهانهم وهم يمارسون تلقي آي القرآن الكريم.*

وما توصلوا إليه من نتائج، يشكل اليوم مرتكزا معرفيا هاما يعول عليه في دفع عجلة بحوث لسانيات النص، وكذا تطوير النظريات اللغوية المعاصرة وبخاصة تلك التي تقوم على التّحليل النّصي، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى هذه المسألة الهامة في حديثنا عن منهج المفسرين في تناول ظاهرة الحذف.

ومن المسلمات إذن القول إن النص القرآني متماسك، وينبغي ذلك؛ لأنه كلام الله الذّي يأتي في ذروة البيان، الأمر الذّي جعل"السيوطي يبرهن برهنة دقيقة على مقولة مشهورة لدى العلماء المسلمين وهي أن القرآن الكريم كالكلمة الواحدة يفسر بعضه بعضا" [4]*، لكن كنا نروم في*

---

[1] - أي أن الحذف في نظر هاليداي ورقية حسن لا يحقق التماسك النصي اعتمادا على المرجعية الخارجية والسياق.

[2] - نهج البلاغة -من كلام الإمام علي كرم الله وجهه، ج55/1.

[3] - علم اللغة النصي - دراسة تطبيقية على السور المكية- : د. صبحى إبراهيم الفقى، ج179/2.

[4] - لسانيات النص- مدخل إلى انسجام النص-محمد خطابي، ص388.

تتبع أي القرآن الكريم توضيح كيف يساهم الحذف في تحقيق التناسق، وكشف الأساس النظري الذي ينهض عليه في هذا المجال.